ذكرى الشاعر الثائر

معروف الرصافي

للأستاذ حمدي الحسيني

— ٢ —

نظم الرصافي ذلك الشعر القوي ضد الظلم والاستبداد في العهد العثماني وسيف الطاغية الجبار عبد الحميد الثاني مصلت على رقاب الناس في طول البلاد وعرضها، وهو كما رأى القراء يتلظى قوة وحرارة، ويتوهج شدة وعنفاً وصرامة، ويتموج اتساعاً وعمقاً وضخامة، ولم يبق الرصافي هذا النوع في الشعر محفوظاً في صدره أو مطوياً في بطن دفتره بل نشره على الناس سراً وعلناً، بلسانه وقلمه. فكان عمله ذاك جرأة عبقري وشجاعة بطل. أما تأثير هذا الشعر في نفوس العرب في ذلك الزمن فقد كان عظيماً جداً. ولا نشك بأنه كان قبة قوية الحرارة والنور، أشعلت في نفس الأمة العربية رغبة الحرية وأثارت أمامها سبيل الحياة. فمشت بقوة تلك الحرارة وبهدى ذلك النور خطوات موفقة نحو الحرية والحياة. وأما بعد إعلان الدستور فقد رفع الرصافي علم الحرية أمام أمته جهاراً نهاراً، وأخذ يقودها إلى الحياة في ظل ذلك العلم على نغمات شعره الشجية المطربة تارة، وبقوارع كلمه وصوادع حكمه تارة أخرى. حتى أصبح شعر الرصافي بسمات جميلة على ثغور العرب. وآيات جليلة على ألسنتهم وآمالا نفيذة في قلوبهم وهزات عنيفة في نفوسهم، وعزمات صادقة في همهم وصوارم بارة في أيديهم. فقاوموا الظلم ودفعوا الأذى وشادوا الممالك. فكان شعر الرصافي أناشيد الثائرين، وأهازيج الفاتحين وأغاني المنتصرين الظافرين. وما كادت تستقر المماليك العربية بعد الحرب العالمية الأولى وتتوطد فيها العروش وتشاد دور العلم وتفتح نوادي الأدب

صورها، وما عرفنا من علامات ضبطها

د — وأما المنحى الرابع فهو الإبقاء على الحروف العربية وعلامات ضبطها، على أن تصب علامة الضبط مع الحرف في بنية واحدة، حتى لا تحيد عنه، ولا تفلت منه. فتبدو الحروف المطبعية معها ضبطها متصلا بها، ليس بينهما من تفاوت

وهذا المنحى تقوم في وجهه عقبتان، كلتاهما كأداء، أولاهما فنية، والأخرى اقتصادية. فإن صندوق الحروف العربية في أوضاعها القائمة كثير الصور، يعيا به الصفافون، إذ يبلغ أكثر من ثلاثمائة عين. ولو أضيف إلى الصندوق صور جديدة من الحروف عليها علامات الضبط على اختلافها، لازداد جهد القائمين بصف الكلمات أضعافاً مضاعفة، ولاستنفد من أوقاتهم بضعة أمثال ما يستنفدون الآن. فهذا المنحى مدعاة لكثرة التكاليف مضيعة للوقت، مجلبة للمقت. ولذلك لا يقبل تنفيذه الطابعون، ولا يرضى به الناشرون. ولا سيما في عصر طابعه السرعة والتيسير، طابعه اكتساب الزمن، واقتصاد الجهد، والتهوين من النفقات

هـ — وثمة منحى خامس، وهو وضع علامات الضبط بجانب الحروف، منفصلة عنها، كالشأن في الحروف اللاتينية، لا كما توضع العلامات الآن فوق الحروف أو تحتها

وهذا الحل يقتضي أن تتغير أوضاع الكتابة العربية في تركيب الكلمات، لكي يكون بعد كل حرف منفصح تحل به علامة الضبط، وأن يفصل بين حروف الكلمات بهذه العلامات. وإذن تبدو صور الكلمات فيها تنكير، وفيها نبو عن المألوف. يضاف إلى ذلك تفويت مزية الاقتصاد في حجم الكلمة، فإن الفصل بين حروفها بعلامات ضبطها يضاعف حجمها

و — وخاتمة المناحي الستة هو الاقتصار على الحروف المنفصلة تسهيلا لوضع علامات الضبط عليها، وتخفيفاً على صندوق الحروف في المطبعة العربية

وفي هذا المنحى مغامز من جهات مختلفة. فهو أولا: يزيد في الحيز المقسوم للكلمات، وهذا تفويت لمزية الاقتصاد، وثانياً: لا يحمي من خفاء الكلمة أول وهلة لافتراق حروفها، وثالثاً: يقتضي يقظة ورعاية للفصل بين كل كلمة وكلمة، ولو وقع النهاون في هذا الفصل — وهو واقع لا أمان منه — لاختلطت حروف الكلمات بعضها ببعض، ولتعذر على القارئ أن يميز كل كلمة في جملتها، ويفرق بينها وبين الكلمة التي تتلوها

البقية في العدد القادم

محمود تيمور

حتى أصبح شعر الرصافي نوراً قوياً يغمر تلك المآليك ، ومصابيح منيرة تسطع في دور العلم ، وينابيع غزيرة تنصب في نوادي الأدب

وما دمنا نتحدث عن شعر الرصافي القوي ، وتأثيره الواسع المدى في نفسية الأمة العربية ، فمن الحق علينا أن نبحث عن سر هذه القوة العجيبة التي جعلت لشعر الرصافي هذا التأثير العجيب

درسنا شعر الرصافي دراسة نفسية واسعة ، وأضفنا ما استنتجناه من هذه الدراسة إلى ما استنتجناه من دراستنا لنفسيته خلال المدة التي قضاها بيننا مدرساً للغة العربية في كلية دار المعلمين في القدس ، فكانت نتيجة الدراستين الجزم بأن سر قوة الرصافي في شعره وفي شخصيته هو الإيمان

آمن الرصافي بحق الأمة العربية في الحياة الحرة ، وآمن بأن الوسيلة إلى هذا الحق هو القوة . فانفجرت نفسه بهذه القوة شعراً قوياً يولد به القوة في نفس الأمة العربية لتأخذ بها حقها في الحياة الحرة . انفجرت نفس الرصافي بشعر القوة على اختلاف أنواع القوة . فالعلم قوة تتخذ منه الأمم التي تطلب الحياة وسيلة للحياة . وما دام العلم قوة فله من شعر الرصافي نصيب وافر . فهذه قصائده الكونيات والاجتماعيات تقوم على أحدث نظريات العلم وأصح قواعد الاجتماع . ترى فيها شروحاً لوحدة المادة ، والجاذبية ، والأثير ، والكهرباء ، وأشعة رنتجن وآراء دارون في النشوء والارتقاء وتنازع البقاء وبقاء الأنسب ، ومذهب ديكارت في التوصل إلى اليقين بالشك ، ومبادئ الاشتراكية في أن تكون للعامل حصة في إنتاجه

تركوا السعي والتكسب في الدنيا وعاشوا على الرعيـــة عاله
يأكلون اللباب في كد قوم أعوزتهم سخينة من نخاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكي أعين السعي في نعيم البطاله

ليس هذا في مذهب الاشتراكية إلا في الأمور المحالة وإصلاح الوسط العربي من الناحية الاجتماعية ، أليس فيه قوة للأمة توصلها إلى الغاية المرجوة في الحياة ؟ إذن فللاصلاح الاجتماعي على اختلاف أنواعه في الوسط العربي حظ كبير في شعر الرصافي . فهذه قصيدته « المطلقة » يصف بها ويلات الطلاق ومآسيه على المرأة المسلمة ، وينتقد بقوة توقيع الطلاق لا سيما إذا كان وقوعه بغير قصد الطلاق . وهذه قصيدته « اليتيم في العيد » تفيض رحمة وحناناً على الضعفاء . وقوة وشدة على من يقف من العرب موقف العجز والذل ويصيح فيهم : —

نهوضاً إلى العز الصراح بعزمة تخر لرساها الطغاة وتركع
إلا فاكتبوا للنهوض إلى العلا فإني على موتي به لموقـــع

والنساء ؟ ألسن نصف الأمة ؟ فكيف يمكن للأمة العربية أن تصل إلى هدفها ونصفها مشلول ؟ إذن فلتحرير المرأة العربية في شعر الرصافي مطارق قوية هائلة يهوي بها على قيود الحجاب والزواج والجهل والحرمان من العمل

كم في بيوت القوم من حرة تبكي من البؤس بعيني أمه
قد لوحت نار الطوى وجهها وأعمل الفقـر بهـا ميسمه
عاب عليها قومها ضـــلة أن تكسب القوت وأن تطعمه
من أي وجـه تبتغي رزقها وطرقها بالجهـــل مستبهمه
وكيف والقوم رأوا سعيها في طلب الرزق من المآثم

وأما قصيدته الخالدة في التربية والأمهات التي مطلعها : —

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بمـــاء المكرمات

فتعتبر من أقوى أنواع الشعر الاجتماعي وأعمقه أثراً في نفس الأمة ، وهي لا تزال تشع بنورها القوي في نفوس الفتيات العربيات فيستضئن بنورها ويهتدين بهديها . ولا نظن فتاة عربية واحدة دخلت المدرسة ولم تحفظ هذه القصيدة وتنتفع بها

وحرية الفكر ، أليست غاية من غايات الأمم التي تبذل في سبيل الحصول عليها دماءها ؟ إذن فالرصافي يدعو لهذه الحرية ، لأنه لا يطيق أن يراها مقيدة في الوطن العربي ، بحيث لا يستطيع المفكر أن يجهر برأيه خيفة الأذى : —

إذا كان في الأوطان للناس غاية فحرية الأفكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا
إذا السيف لم يعضده رأي محرر فلا تأمنن من حده ضربة بكرا

وهؤلاء الفاقيع الذين يفاخرون بالعظم الرميم ، أليسوا شراً على الأمة ؟ فعلا يستحقون أن يصفعهم الرصافي على وجوههم ليردهم عن هذه الاتكالية البشعة إلى الثقة بالنفس والاعتماد على الذات

فشر العالمـــين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفســـه حسبا جديدا